

مفهوم التصوف و فائدته العلمية

للاستاذ المهدي بن عبود

ان الانسان بكونه انسانا دائما يبحث عن نفسه اذا ما اتكل على مجهوداته الخاصة ، دون ان يتعلق بالقوة التي كانت سببا في وجوده وكانت غاية لمروره على وجه البسيطة ، فالانسان دائما يبحث عن نفسه . قالها بعض علماء النفس ، والمشهور بهذه اللفظة هو ”يونج“ في كتابه انه منذ بدء الخليقة ، وقف على شئ في نفسه ، جعله في نفس الوقت مفضلا على سائر المخلوقات ولكنه مسجون في نوع من هذا القفص نفسه الذي بفضلله كان مرفوعا مكرما في الطبقة الاولى من سائر المخلوقات وهذا الشئ هو الوعي الحر .

لما نجيل ابصارنا او بصيرتنا المعنوية حول ما يحيط بنا نجده اذا ما تصدينا اليه بالعقل المتزن ، الذي يتبع سبيل الوسط ، مملوءا باشياء تبعث على المسرات ، و اشياء تبعث على الالم ، اشياء تريك بان الاعمال الانسانية ، فيها نصف جميل ، ونصف يحتاج الى تقويم اذا لم يكن قبيحا ، فيها جانب من الجهل و جانب اصغر من الجانب الاول من العلم ، لانه من المعلوم ان الارتقاء الفكري ، يفتح آفاق الجهل اكثر من آفاق العلم ، وهذا ما يعبر عنه في المدارس ، في قسم البكالوريا مثلا ، عندما يحكى عن سقراط انه يقول : ”كل ما أدري هو اني لا أدري شيئا“ ، و يقال بان ”لا أدري نصف العلم“ . الخ . فالانسان اذن دائما يبحث في نفسه عن الجميل ليزداد جمالا ، العالم ليزداد علما ، الخير ليزداد خيرا ، و يبحث عن النصف الاخر الذي يحتاج الى تقويم ، اما من ناحية العلم ، او من ناحية الجمال ، او من ناحية الخير . و معياره

في الفرار من الجهل و الشر و القبح ، و التقرب من العلم و الخير و الجمال هو الشعور الذاتي بالسكينة ، هذا هو المعيار الذي بفضلله يكون هذا الشعور الواعي الحر للانسان ، يرجع الى نفسه راضيا مرضيا مطمئنا او متألما لكثرة الجهل و انتشار و تعميم القبح بدلا من الجهل ، هذا الشعور بالسكينة و الراحة النفسية و الطمأنينة في البيت او في المدرسة او في المعمل او في الازقة او في الاحاديث مع الناس أو حتى بالقيام بالواجب في ساحة الوعى و الدم يسيل ، هذا الشعور بالطمأنينة و السكينة هو الذى يجعل الانسان يعطى معنى لهذا الشئ الفاصل بينه و بين سائر المخلوقات و هو الوعى على شرط ان يكون و عيا حرا لا وعى اللصوص .

و يتبع طريق البحث فيقول يمكن ان نحصل على ما هو ايجابي و نفر مما هو سلبي ، عن طريق الشك ، و هذا الشك يمكن ان يكون من نوعين ، النوع الاول و هو ما يسميه ديكرت و تعلمون هذا "الشك المنهجي" ، و النوع الثاني هو ما يسميه الغزالي في "المنقذ من الضلال" ، بالشك الصادق المخالص الذى يلهب النفس ألما لان الحق لا ينبع الا من لهيب الالم . و يستمر في سيره فيرى بأن الغاية من هذا البحث عن نفس الانسان بفضل ذاك الفاصل بين الانسان المكرم و سائر الخليقة ، و هو الوعى الحر عقلا و وجدانا ، غايته هي ان يرجع الانسان الى رشده و الى نفسه كأنه كان في جو التائه الذى انفصلت عنه نفسه ، و خرجت من صدره فكان يبحث عنها حتى يرجع و يكمل ذاته الناقصة ، و ذلك لانه عندما ينسى الانسان الحق ، ينسى نفسه في الوقت ذاته ، و عندما يرجع الى الحق يرجع الى نفسه في ذات الوقت بنص الآية الكريمة ، عندما ينسى الانسان الله و هو الحق المطلق ينسيه نفسه ، و عندما يرجع الى الحق عن بحث و مجاهدة يريه مرآة نفسه صافية على شرط واحد ، و هو ان هذه المرآة ، ينبغي ان تكون على أحسن تقويم لا مرآة مشوهة فيها

المكائد ، فيها الماكنيا فيلية ، فيها ما يسمى بالعربية الدارجة ، سياسة التوريط وسياسة "الرشوح" ، هذه المرأة الصافية مرآة العالم في مختبره ، مرآة الشاعر انتظاراً للقصيد مرآة الرسام في انتظار الالوان المنسجمة التي تفتح قفص الصدر امام الانسان المكبوت الذي يبحث عن هذه الحقائق فلا يجدها . كذلك نفس الفيلسوف الصادق الذي يرجع الى اشتقاق الفلسفة ، لا الى انحرافها الحالى اليوم ، يعنى محبة الحكمة لا التلاعب الفكرى الذى يشبه ما يراه الاطفال في "السيرك" .

ان الانسان فى بحثه عن الحقيقة يقول : عندما تندلع المدلهمات حولى و يتفاقم الامر حولى و تضطرب نفسى بالشكوك ، أجد نفسى منسابا فى نوع من الجحيم ، ينبغى أن أخرج منه لان فى ضميرى وجدان يتكلم ، و عقل يوضح بان هناك اشياء نطلبها و نتألم من فعل عكسها اما عن طريق الجهل ، كما يقول افلاطون "لا يتصدى الانسان لفعل الشر لانه جاهل بالخير" ، لا لانه شرير فى جبلته ، واما انه يبحث عن طريقة عن الجمال عن الصور التى تفسح المجال للنفس ان تعبر عن نفسها عن طريق الافعال البناءة و هى أفعال الخير ، لانه لا يمكن ان يشيد صرح العمران الا على اساس الخير لا على اساس الحياء فيجد الانسان انه من الضرورى الحتمى انه فى بحثه خارجا عن الشكوك و متوجها الى باب اليقين ، ان يكون هذا اليقين منظما ، ضرورى ان يكون منظما ، و الا سيبقى تأمها فى هذه الغابة المملوءة بالوحوش اما المالية او وحوش الجاه او وحوش السلطة أو وحوش الضغينة من حيران و من زملاء الى غير ذلك . سيبقى الانسان دائما تأمها فى هذا ، و هو يبحث عن شىء ، الخروج من الشكوك ، و ان يطوى صفحة الشر ، و أن يفتح صفحة الخير عن طريق اليقين الثابت ، و اليقين الثابت لا يمكن ان يتأتى الا اذا كان الانسان متصفا بوصف واحد ضرورى لكل عالم و لكل شاعر و لكل محام و طبيب و لكل امرأة و رجل و هذا

الشيء هو النزاهة - العلم للعلم، و الحق يبحث عنه لانه الحق، ولانه بعد ان يكون حقا ، تكون من ورائه المنفعة ، كما يقول احد المفكرين الاوربيين الا و هو جاك شوفالييه الذى كتب كتابا اثبت فيه أن المنفعة تابعة للحق و ليس الحق دائما تابعا للمنفعة ، فالمنفعة خصوص لا يتبعها الحق .

اذن الخروج من الشكوك ، ليطوى الانسان صفحة الجحيم ، ويفتح صفحة النعيم ، عن طريق اليقين و هذا اليقين يكون مبنيا على الحق ، لا على التلاعب و الحيل ، فما هو هذا الحق الذى سيقوم عليه صرح نظام اليقين ، هذا الحق ينبغى ان يكون حقا يقاس بمعيار ثابت بعد الاتصاف بالنزاهة الذى بدونها يستحيل العلم و الشعور الموسيقى و كل شئ هذا الحق ينبغى ان يكون منظما و معياره هو العالمية و الشمول ، ينبغى ان يكون هذا الحق صالحا لزيد و لعمر و صالح للمغرب و للجزائر و لفرنسا و كل الدول ، صالح لهذا الزمان و لما سبق من زمان ، حتى لا يحكم على السابق بالجهل ، و على اللاحق بانه العاقل الجميل المظهر ، فهذا الحق ينبغى ان يكون متصفا بالعالمية و الشمول فى الزمان و المكان ، و هذا هو المعنى الارضى للاطلاق ، اذا ما اخذنا هذه اللفظة فى حق البشر و التاريخ ، هى أعلى من هذا فى حق الذات الالهية .

هذه السكينة يمكن ان نضرب لها مثالا كلكم عشتموه لما تجولتم فى متحف او انشرحتم لتلاوة كتاب اما مملوء بالمعاني العميقة أو مملوء بالصور الجميلة اما فلسفة أو حكم أو شعر أو فن نثرى أو غير ذلك او الاستماع الى الموسيقى و آخر اختبار كان لكم هو لما جاءت "ام كلثوم" و قامت بدور فنى كان مبنيا على ركائز اربعة :

الركيزة الاولى

النزاهة و الصدق ، الفنان لا ينجح فى فنه الا اذا اتصف به

و كان لا يلعب به حتى يروق الناس ، مثلا تشايكوفسكى من الناس العظماء فى الموسيقى ، لكنه هو نفسه كان يشتكى دائما بكونه لا يشعر الشعور الثابت اليقين بانه مخلص فى ما يفعله بل انه كان يتقن الى درجة عالية ، فن الزخرفة ، فى حين كان بجانبه رجل يقول بان هذه الموسيقى اقتطعها من شغاف قلبى و اعماق شرايبنى و هى تفور من دمي هذا الرجل اسمه "بيتهوفن" ، و كلكم ترون أن فيه القوة الوجدانية لان موسيقاه كلها حياة و حرارة تختلف عما سبقها و عما لحقها ولكنها كانت متصفة بالنزاهة و الصدق ، ثم هذا الموسيقى شعر بشىء و هو أنه عندما يريد الانسان أن يريح نفسه من هم او غم ، أو عندما يريد أن يشعر بأن نفسه تفور نعيما و اشراقا بالسعادة ، ينبغى أن يكسو شعوره أو المعانى التى تروج فى ضميره ، ينبغى أن يكسوها بالالفاظ البشرية ، و لذلك موسيقاه الصامتة ، ضاقت بالاووتار و ادخلت رغم القواعد التى تلزم الناس بأن يكتبوا الموسيقى الصامتة فحسب ، وجاء فى سمفونيته التاسعة و ادخل الصوت البشرى ، و بذلك ظهر بأن الفن الموسيقى ، لا يصل الى درجة كماله متكئا على الركيزة الاولى وهى الصدق و النزاهة فى التعبير الا اذا دخل باب الغناء و اصبح يستعمل بجانب الاوتار و الاوركسترا و العزف ، يستعمل اللغة يستعمل الكلام البشرى الحار الذى لا يمكن ان يعوض اى وتر و اى بيانو و اى عزف ، شعرت بان هذا التجاوب يخرج الانسان من سجن الجمل ، يخرج من جوميت ، ويرجعه الى جوكله نظرات حياة و كله تموجات نور .

الركيزة الثانية

العالمية و الشمول فى حق البشر ، و ذلك يعنى أن الانسان و لو لم يكن مدربا ، و لو لم تكن اذنه تلتقت تربية على الموسيقى المحلية العربية ، أو ، المحلية الصينية ، او المحلية

الاوربية ، يجد فيها نعمات ، و يجد فيها تعابير جالبة لاهتمامه و مشيرة لحواسه الشعورية ، رغم ان الصبغة الظاهرة للموسيقى هي صبغة محلية عربية صرفة ، فيقول بأن هذه الفنانة او هذا الفنان عبقرى اى انه غاص كالجن كعبقر و اخرج الجواهر من قعر البحر.

الركيزة الثالثة

الانسجام ، تعلمون أن العالم كله مبنى كذلك على ركائز اربعة الخلق ، التسوية لا تنافر بين الاعضاء فى جسم تام و التقدير الحساب ، و الهداية ، التوجيه الى طريق اليقين ، بان هذا اليقين منه يخرج علم اليقين و منه يخرج الفعل المبنى كذلك على اليقين . هذه الالفاظ الاربعة عليها يقوم الكون (خلق فسوى قدر فهدى) و الخلق بالاستوية ، و التقدير بالهداية .

الركيزة الرابعة

هو ما يبحث عنه الانسان ، هو المنبع الاول الذى خرج منه ، خرج من الوعى الحر ، و اراد ان يكتشف حريته و يراها و يتمتع بها فيكسر القفص و هو صدره كما يقول السهروردي "أنا عصفور و هذا قفصى" ، يشير الى القلب ، فيكسر قفصه و سجنه ، الواجبات المتفق عليها و هى جميلة فى حد ذاتها ، تكسر سجن الخضوع خضوع الانسان كجزء من هذا الكون ، فهو مجبور بأن ينام مجبور بأن يجوع مجبور بان يزداد و يموت ، ولكنه يريد أن يتحرر من هذه الحتميات و لو دقيقة فى حياته حتى يتبع طريق الحق و طريق اليقين ، عن طريق التحرير ، فترى من هنا انه اذا تصدينا للانسان عن طريق الفن كما شاهدناه عن طريق ام كلثوم ، و بيتهوفن و تشايكوفسكى رغم ثقافته نرى ان هذا الانسان الذى يبحث عن نفسه و يريد اليقين المبنى على الصدق و المبنى على الشمول و المبنى على الانسجام و النظام و

التقدير والذى غايته هو ان هذا الانسان خلق فى أحسن تقويم ، ثم رد اسفل سافلين ، بما يرى فى مجتمعة من مكائد ونقصان واحتقار وذل فى المهزائم الحربية الى غير ذلك ، يرى نفسه بانه ليس هو هو ، وأنه هو الرجل الحر ، وانه أضع حرته وينبغى ان يكتشفها . فله السبل العديدة ، لكن اذا كان سبيل العلم وقبل سبيل الفن يكتشف حرية الانسان وسبيل الافعال الخيرية من منظمات خيرية واسعاف طلبية و تشييد مدارس وبر الوالدين والجار قبل الدار (حتى ظننت انه يورثنى . الخ) ، لكن الانسان طموح يريد اكثر من ذلك يريد هذه الحرية ، لكن ليس من النوافذ فقط يريد ها من باب الدار يريد ان يفتح باب العلم والمعرفة على مصراعيه ، وان يرى الحقائق كلها مجتمعة فى نظام غير ان هذا النظام العلمى ينبغى ان يكون فى نفس الوقت ما يسمى بالنظام العلمى عن طريق "العلوم" بالجمع لان العلم بالمفرد هذه خرافة ، وعن طريق العرفان . العلم كما فى الكيمياء والفيزياء و علم الاحياء والتعمير و الهندسة والفنون ، والعرفان هو ذلك الجو النفسانى الذى يجعل الانسان قائما على أساس اليقين ، فى معلوماته فى مبدئه و فى غايته وله نظرة شاملة على الكون ، لان العلاقة ما بين الانسان والكون ، ما هى الا واحدة وهى علاقة المعرفة وكل ما هو خلاف المعرفة ، فليس بعلاقة ثابتة ، ما بين الانسان الواعى الحر وما بين الكون المسير الذى ليس بمخير بما فيه الملائكة . وهذا النظام الشامل العام الثابت ، ينبغى أن يكون نظاما لا جملة .

فالفلاسفة كهم اخترعوا جملا فلسفية ، فهذا عنده الجملة الديكارتية و هذا عنده الجملة اللايبنتزية التى تقوم على أساس الجواهر الروحية أو المونادات . وهذه عنده مذهب المثل الافلاطونى وهذا عنده مذهب الجدلية المهيكلية ثم الرجل الذى قال بأن هيكل كان يمشى على رأسه فنصبه يمشى على قدميه وهو ماركس والواقع انه

لم ينصبه على قدميه بل قطع رأسه فالانسان يبحث على نظام ليسير بنور ووعى خلاق بناء على وجه الارض وهذا النظام لا ينبغي ان يدخله نوع واحد من الشك ، وبما ان الاختبار البشري من بدء الخليقة الى اليوم ، أقام البرهان على نقصان العقل في نفس الوقت ، وهذا اجتماع الضدين ، يقول ابن العربي الحاتمي : "لا ينفر من التناقضات الا هذا العقل الضيق ، فهذا العقل الضيق هو العقل الناقص في نفس الوقت ، هو عقل طموح يريد الاطلاق ، ولكنه نظرا لنقصانه وضعفه من المستحيل عليه أن يأتي بالاطلاق . وقد اقام الفلاسفة عبر التاريخ ، البرهان على أنهم شيدوا من الجمل الفلسفية ما شيدوا ، فكانت النتيجة التطاحن . بينهم فيقول الانسان انا الذي أسير في هذا الوجود ، خلقت دون أن استشر ، ثم أصبح في الصباح فاذا الدنيا كما نعرفها ، لي عقل ناقص ، و أنا أشعر بانه من المستحيل ان يأتي بشر واحد متزن سليم البنية النفسانية و الحسمانية في نفس الوقت و يقول بانه يستطيع أن ياتي بالعلم المطلق دون ان يحكم عليه بالدخول ولو شهرا واحدا لمستشفى الامراض العقلية ، وفي نفس الوقت هو طموح يريد الاطلاق ، هذا هو اجتماع الضدين المعقول المقبول ، فكيف الخروج من هذه الورطة ؟ الخروج من هذه الورطة هو فرض بسيط لانه لا يتحتم على المرء أن يكون فيلسوفا حتى يبتكر هذا الفرض ، ثم يضعه على بساط البحث ، ثم يدعن اليه قبولا و خضوعا ، وهذا الفرض هو إما ان العالم منظم ، و اما انه فوضى ، فاذا كان العالم منظما فلا بد له من ان يخضع الى العقل الطموح الذي آتاه الله من النور ما جعله يجمع ما بين الضدين النزاهة و التواضع لانه يعرف بانه لن يصل الى الاطلاق . و الطموح الى التوجه الى هذا الاطلاق ، لانه بدون الاطلاق يستحيل عليه أن يسير بنور و هدى و بصيرة في هذه الدنيا التي يمر منها لمدة ثمانين سنة أو ستين أو اربعة أشهر أو مائة سنة . و اما ان العالم فوضى ، هذا ما افترضه بعض

الفلاسفة دون ان يفوهوا بلفظة الفوضى و منهم جون بول سارتر الذى لا يفهم بتاتا ، عقلا لا يفهم بتاتا ، عقلا لا يفهم لانه كله تنقض يقول : بان الانسان ملقى فى هذا الوجود ، ... ”الانسان - ملقى - به - فى - الوجود“ و الغاية من هذا التفكير هو ان الانسان يبحث دائما عن حرিতে ، ولكنه يرى نفسه مسجوناً فيها لانه يقول : ليس الانسان حراً فى أن يستغنى عن حرিতে ، فترى هذا الكلام ترهات فارغة . فيرى كما يقول هو نفسه ”العالم عبارة عن عجيبة لزجة لاشكل لها“ ، و يقول فى الغثيان : ”و وجود مثل هذا العالم كثير“ ، لكن هناك الله سبحانه و تعالى الذى انعم على هذه الامة بالاسلام فلم يظهر فيها تشويه فكرى مثل هذا التشويه . فى الاسم الغريبة من الامثلة التى تصدت بفكر سليم الى فرض (وجود الله) هو برودون الذى كان بينه و بين ماركس تطاحنا جدليا ، هذا النظام الذى ليس بالجملة اذن يستلزم فرضاً و هو ”وجود الله“ الذى يجب ان يخالف كل ما يخطر ببال البشر ، و يجوز فى حقه ما لا يجوز فى حق غيره . و هذا النظام سيكون هو باب البيت الذى سينفذ منه الانسان لاكتشاف حرিতে من جديد ، ليرجع الى احسن تقويم خارجاً من اسفل سافلين . عن طريق اى شى ؟ عن طريق الحجرات التى تشيد بها هذا النظام ، و هذه الحجرات اما تتكاف بالفرد أو تتكاف بالتاريخ ، لا اقول المجتمع بل اقول التاريخ هنا قصداً ، الفرد يريد أن يرتقى من الحضيض الى الكمال ، و التاريخ كذلك يعنى بالمجتمعات على مر العصور ، تريد ان ترتقى من الحضيض الى درجة الكمال ، و الاولى ان لا نقول الكمال لانه لله وحده ، و انما نقول درجة الاكتمال ، هو فى طريق الاكتمال ، و الاكتمال هى ظاهرة متوالية متابعة و دائمة ، تعلقو و تسفل مثل الايمان فالتاريخ لا يتبع خطأ مستقيماً متصاعداً ، بل يتبع خطأ حلزونياً اما صاعداً او نازلاً بحسب العصور ، و هنا نجد بأن العصر الذى

نعيش فيه ، هو بكل وضوح عصر سجن المؤمن و جنة الكافر ، و اعنى بالكافر المعنى الاشتقاقي للفظه ، (كفر بمعنى ستر) كفر بالحق بمعنى شعر بالحق ولكنه تعدها تعدى حقوقه وستره اما عن طريق التحريف والمقصود بهم اليهود المغضوب عليهم ، و اما عن طريق النية و الضلال و هو الاخذ بالظاهر بأنه هو الباطن و هم الضالون . فهذا النظام الذى يبحث عنه الانسان يستحيل الدخول اليه اذا لم يكن هناك فرض وجود السبب الاول ، بما فيه من صفات و أسمائه المتفرعة بحسب الانسان الكامل عن طريق الصفات و الاسماء الذاتية و الجلالية و الكمالية ، و الجمالية ، هذا شئ ستجدونه فى الكتب و لكنه داخل فى نظام الكون و نظام العالم و نظام الباطن الذى يريد ان يكتشف الانسان ، حتى يكتشف حريته .

لكن اذا قلنا باختصار ، ان هذا الفرض هو من الضرورى الحتمى كما قال برودون "من المستحيل أن يتدرج العقل البشرى فى سلم المعرفة ، ما لم يخرج من هذا الفرض" ، لان كل شئ معقول يصبح مستحيلا و تدخل فى الاتجاه الذى يتكلم عنه اليوم و هو اتجاه المعقول .

هذا الصرح الذى يريد الانسان ان يكتشف حريته فيه ، كما يشعر فى المثال الذى قلنا عندما تهيج النفس باكتشاف النفس عن طريق الجمال الموسيقى فى هذه المرحلة الاخيرة التى مرت بالمغرب عن طريق ام كلثوم ، عندما ، يلج الانسان باب الحقيقة و يرى بانه لا يفتح الا لمن خرج من هذا الفرض الاول ، يقتنع به و يصبح يقينا ولكنه علم بالتعقل ، علم اليقين بالتعقل ، و يقول بانه هو نفسه يريد ان يتسلق درجة ثانية فى سلم المعرفة خارجا من علم اليقين الى شئ يشاهده بعينه ، فالموسيقى يشاهد التموجات الموسيقية ، بيتهوفن كان صما و كان فى آخر حياته و هو أصم ، ينتج من الجمال الموسيقى ، ما كان ينتجه و هو باذنه سليم السمع فالانسان يشاهد الجمال و تقاسم

الجمال ، عن طريق سنن الكون وسنن الخلق وسنن التدبير ، وهو الخلق والتسوية والتقدير والهداية يشعر بهذا كله فيتسلق من علم اليقين الى درجة اعلى يعيشها ويحياها ويكون في نفس الوقت عالما وفنانا ، اذا اخذتم كتب علم الجمال ، تجدون بأن الناس يفكرون في اكتشاف القوانين الجمالية لعلم الحساب ، وعلم الكيمياء فضلا عن الفن المعماري الذي كله تقدير وحساب ، ولكن المهندس والموسيقى والشاعر والعالم يجتمعون في هذه الدرجة الثانية بعد الخروج من علم اليقين والولوج في عين اليقين ، وهنا يقول كلود برنار "سيأتي يوم يكون فيه العالم والفيلسوف والشاعر يتخاطبون بلمحة واحدة و يتكلمون بلغة واحدة" ، والصوفي يقول بانى خرجت من الدرجة الاولى وهى درجة الشكوك ثم كنت تأمها فتبتت عن هذا التيه اما باقلاعى عن المحرمات او عن الاشياء التى تطمس البصيرة ، كيف ما كانت ، ثم الوثقى و هو علم اليقين ، ثم اردت ان لا يكون هذا العلم ككتاب مودوع فى مكتبة ، بل ان يكون نازلا فى نفس ، تتحرر شيئا فشيئا ، باستنارتها واحياها نفسها عن طريق الاكتشاف الاول الذى جاء من علم اليقين والآن أصبحت حياة ، واتصفت بالوصف الالاهى و هو الحياة ، العلم و الحياة و القدرة و السمع و البصر و هو الحياة ، ودخلت الى عين اليقين . ثم تقول هذه النفس ينبغى ان يحترس الانسان من الغلط ، حتى لا يضيع المحصول فهذا المحصول قام بضمن غال ، وتمجن الانسان فيه ، عن طريق العصيان ، وعن طريق الانحراف وعن طريق النية وعن طريق هبوت الشباب و عن طريق العدو الاول للمغرب وسائر الدول المتخلفة و هو تقليد العبد يقلد سيده فى لغته وفى لباسه وفى تقطيع شعره وفى تفكيره وفى موسيقاه وفى سارتريته الى غير ذلك ، فيقول وصلت الى هذا المحصول بضمن غال ، و افترضت و عن طريق الفرض وصلت الى علم اليقين، وبعد ذلك الى عين اليقين، ولكن كيف يمكن أن أتصرف فى نفس،

حتى انفى منها كل ما هو سلبي ، من عجب و من رياء ، يخاف ان يدخله الغرور لان الغرور هو مفتاح الانانية ، و الانانية هي مفتاح الشيطنة لا يمكن ان تتصف الا بالرفض و الاستكبار (أبي و استكبر) و كان من الساترين للحق اى الكافرين . و هذه هي أوصاف الذين نزلت عليهم الذلة و المسكنة و الغضب من الله ، لان الرفض هو الانحراف ، يحرفون الكلام عن موضعه ، يؤمنون ببعض الكتاب و يكفرون ببعض ، و يستكبرون ويقولون بانهم ابناء الله و احبائه و هم شعب الله المختار ، هذه كلها اوصاف شيطانية ، و فى الاشتقاق لفظة شيطان تعنى المستور من شىء يخجل منه الانسان ، كل شىء يريد أن يخفيه الانسان مثل سمسار يريد ان يتحايل على رجل فيجره الى شبكة البيع ، لبيت او أرض فيها غش فهذه اشياء كلها مستورة يعنى شيطانية ، و الاشتقاق نور للالفاظ و الكلمات ، كما ان الموسيقى هي حياة الكلمات .

فيريد ان لا تتطرق اليه الغفلة فينقص عمله ، و ان لا يتسرب اليه الغرور فتطمس بصيرته ، و يريد أن يفنى عن نفسه حتى لا يبقى متشبها الا بالحق ، هو كان مستعدا ان يبذل نفسه فيموت فى سبيل وطنه و فى سبيل الحق و فى سبيل العدل و الخير ، و يقول بأن هذا الموت شىء سهل لانه اما ان ترمى فلان بالرصاص او ان يرمىك بالرصاص ، فهذا لا يحتاج الى مجاهدة كبيرة هذا يحتاج الى علم اليقين ثم يحتاج الى نوع من علم اليقين لان النفس كشافة فترى الحق فتتبعه و تبذل كثيرا من الاموال و لكن هذا شىء بسيط يسمى بالجهاد الاصغر . و لكن ما هو اعنف و أشد على النفس هي الاشياء العالية التي كانت تحف بالجنة اى بالنعيم الروحاني ، الجنة محفوفة بالمكارم ، فكل الاشياء تكون شاقة على النفس عندما تكون عالية و كبيرة . فيريد الصوفى أن يفنى لانه يرى بأن الحق و هو السبب الاول هو ذلك الحق السبب للغاية ، المعبر عنه بهذه العبارة التي يعرفها الخاص و العام ”انا لله و انا اليه راجعون“ ، و يريد ان يتشبع

بها حتى يكون مخلصا اخلاص الرجل الشديد في كل ما يعمل لانه مستخلص عن الله . فتمودج الصوفي يصل الى التحقيق بعد أن شاهد اليقين على اساس العلم اليقيني ، عين اليقين اى تحقق بهذا اليقين ، وقام يعيش له فانيا نفسه ، وهى درجة يسمونها درجة الفناء ، التى صورها فى شخصه الكريم الرسول صلى الله عليه وسلم ، صورها فى شخصه الفاضل أبوبكر الصديق الذى وصل الى التحقيق باليقين عندما كان الناس يشكون فى قصة الاسراء و المعراج و يستشيرون فيقولون له اتصدق بهذا فيجيب نعم ، و بذلك سمي الصديق ، لانه تساق من علم اليقين الى حق اليقين و هذه الفاظ ثلاثة قرآنية التى تكتنف العلوم ، و تبني هذا الصرح العظيم الذى فيه يبحث الانسان عن نفسه ليتحرر فيكتشف حريته ، و يخرج من العبودية الوثنية الى العبودية الحقيقية ، العبودية الوثنية هو أن يتبع الانسان طريق الذل فيحرف العلم عن مواضعه و هذا ذل ، و يكون لا يعبد الا الذهب سواء سمي دولار او ليرة او فرنك سويسرى ، فالعالم كله اليوم ، عن طريق اولئك الذين نزلت عليهم الذلة و المسكنة ، لان أساسهم المنحرف الذى يسمونه دين مبنى على ثلاثة أشياء :

الشيء الاول

هو الرفض و الاستكبار بمعنى الانفصال عن البشرية بدلا من الانعمار فيها ”و قد خلق الله الناس من نفس واحدة“ و من احيى نفسا واحدة فكما احيى الناس كافة و من قتل نفسا واحدة فكأنه قتل الناس كافة – هؤلاء يقلبون العلم رأسا على عقب ، و ينفصلون عن البشرية كلها و يقولون ان الله قد نفخ فيهم من روحه ، و لم ينفخ فى باقى المزابيل التى تسمى بالبشرية .

الشيء الثاني

وهو ان الجزاء والعقاب ، لا يكون الا على وجه الارض لا في الآخرة ، وكان تفكيرهم من اوله الى آخره ارضيا ، و العبارة العصرية للتفكير الارضى هو التفكير المادى والناس كلهم يعلمون عندما يتصدون بالبحث والتفكير بأن لفظة مادة أصعب تعريفا من لفظة روح ، ولا أدل على ذلك من البحث الذى نشرته مجلة أوربية لشهر ابريل بقلم احد فطاحل علم الفيزياء اسمه روسى يقول : ”بانه ينبغى ان نراجع افكارنا فى تصورنا للمادة“ .

الشيء الثالث

هو انه — كما يقول ابن قيم الجوزية فى كتابه ”اغاثة الالهفان من اباطيل الشيطان“ ، يقول : ”ان هذه الامة الغضبية تقول بأنه لن يقوم لله كيان على الارض ما لم يكن ذلك الكيان قائما على يد دولة اليهود“ . التابع للحق الذى يريد ان يكتشف الحرية ، أن يكتشف نفسه مبنية على الحق والخير والجمال وعلى التسلق فى سلم المعرفة من درجة علم اليقين الى عين اليقين الى حق اليقين يفترض بأنه لابد من ان يكون المضمون فى الايمان وهو مفتاح العلوم ، الفيزياء تبدأ بايمان يفرض الهندسة كذلك علم الاجتماع يبتدىء بفرض (الرأى) الى غير ذلك ، الديانات المبنية على انظمة لا على جمل فلسفية تبدأ بشيء ثابت كذلك ، لا يقوم عليه البرهان السابق و هو الايمان اليقيني هذا الايمان معناه جمع شتات الفكر فى نقطة واحدة . الانسان مجبول على التوحيد ، عندما يكون عالما فيزيائيا مثلا ، يريد ان يدمج سائر المعلومات فى معادلة واحدة كاينشتاين مثلا فالانسان مبنى على التوحيد ، وهذا التوحيد ينهى الانحدار الى الجهل وهو الاشرار ، فاذا أردت ان توحد الحق

فينبغي ان لا تفكر الا في الحق ، وان لا تعمل الا بالحق من أجل الحق ولوجهه ، وتنسى نفسك فتبقى في درجة "حق اليقين" بالتحقيق عن طريق التوحيد ، وهذا التوحيد يبرهن لك ، بانك ستكون عضوا في المجتمع ، عضوا صالحا على وجهين ، الوجه الاول ، هو ان التشييت الذى خرج من الشك في أول مراحل تفكيرنا ، سيجمع شمله عن طريق التوحيد ، التوحيد يوحد ، ويكون هذا النظام الاسلامى الذى يتفقه فيه الصوفية ليغوصوا الى معناه الحقيقى عن طريق علم اليقين و عين اليقين وحق اليقين ، يريد ان يكون هذا النظام مبنيا على توحيد الحق بسائر صفاته و أسمائه و انه هو الفاعل و انه يعلمك كيف تشبث به من اجله ، حتى تكون رجلا نزيها لا نشرك بالواحد الاحد ، لان الاشرار به هو الجهل ، والجهل انحدار و الانحدار هو النزول من أحسن تقويم الى أسفل سافلين ، فيكون من الفرض بوحدانية الله استنتاج وحدانية الروح خلافا لما يظنه المغضوب عليه ، وحدانية النفس البشرية التى تساوت فى الحقوق لانها حرة و حريتها هدها النجدين فهى استطاعتها ان تقوم بخير ، و ان تتصدى للشر ، فاذا تصدت للشر ، فانها جاهلة ، و اذا تصدت للخير فانها عالمة ، و اذا تصدت للخير فستدرج على المراحل العشرة ، وهى : النفس النباتية التى خلقت من كونها جنينا تتعيش من غيرها و لا تتحرك هذا وصف النبات ثم صبيا مولودا جديدا فى شهره الاول يتقوت و يتنفس و يعيش من غيره لنفسه و لكنه يتحرك فهى نفس حيوانية ، ثم تصل الى درجة من الاثنين او ثلاثة أو أربعة اعوام فتصل الى درجة الوعى و لكنها تكون أنانية ، فالانسانية هى حب التملك و هى أن يكون الانسان يدور على نفسه كأنه قطب العالم ، كما يقول هؤلاء بأن الله اختارهم ، فتكون النفس أمانة و لكنها قبل ذلك وصلها الوعى ككل نفس ، الهمة الخير و الشر ، رجاء هذا الضمير و هذا القلب الذى يريد أن يدخل باب المعرفة حتى يمر

نفسه للرجوع الى أحسن تقويم فرارا من أسفل سافلين ، فتصير النفس لواءة رادعة لها علم اليقين بالخير و الشر ، و تتسلق الى نوع من الاطمئنان بعد ما تألف عمل الخير من علم و اعمال و جمال و تفر من الشر و من الطمانينة ، تتدمج في الكل ، و هذا الكل بعد ان وصلت الى فرض التوحيد و فرض الواحد ، تعلم انه المرید و هو المحب و هو الباری و الخالق المصور . الخ ، ثم عند اندماجها تشعر بانها كانت جزءا مسيرا بجسمها تخلق و تموت تجوع و تؤدى الفرائض و الواجبات بكيفية لازمة لان فيها الاكتمال ، تشعر بأن هذا الجو الكوني الذى انعمت فيه و هى راضية قبلها و هى مرضية فيه ، و تسلفت درجة اخرى فوق المرضية و هى درجة الذى يستطيع ان يتصرف دون اعوجاج بقدرة "سارية الجبل" ، لما قال عمر بن الخطاب ، فسمعه سارية و ابتعد عن الجبل . فهى تتصرف فى الكون لان الانسان ينظر بموهبة فتتصرف بالقدسية "الولاية" ، ثم هذه النفس انبثقت من علم الله و استنارت بروح هو قبس من روح الله ، و كانت هذه النفس فى علم الله ، و كانت فى درجة الكمال لانها قبس من روح الله لانه لا يتصور فيها شىء من النقصان فكانت النفس المحمدية و هى النفس الكاملة . هذه هى الدرجات العشر . و عندما ينحدر الانسان من فرضه الاول يقول الصوفى وله الحق فى قوله هذا ، يرى بانه جاء من عند الله و سيرجع الى الله ، و الله وحده هو العامل المتصرف ، و منه خلقت هاته النفس التى هى الروح ، و روح واحدة و النفس بواجباتها و معرفة الخير و الشر ، و هى كذلك نفس واحدة ، قامت الواجبات واحدة على البشر كلهم ، و كان التكريم للبشر كلهم لا لنوع واحد من البشر ، و كانت المحبة للبشر كلهم ، و كان باب التسامح "لا اكره فى الدين" مفتوحا لسائر الناس . فيكون الصوفى بعد ان يصير من درجة علم اليقين و عينه و حقه الى هذه الدرجة من الاطمئنان و الرضى و المرضى عنه ، كما يقول احد الفلاسفة ارادة صريدة و ارادة ، ينزل الى المجتمع و يرى بانه سيتمرن فى هذا المجتمع بعد رياضة قوية صوفية اعطته مذهبها و اخرجته من الضلالة الى الهدى

ومن الجهل الى العلم ومن الظلمات الى النور ، فاعطته مذهبا مبنيا متسق الاجزاء لا يشوبه اعوجاج لا يدخله الشك من بين يديه ولا من خلفه صالحا لسائر الازمنة هو محور التاريخ ولسان الحق لانه تلمح به السنة الخلق كلهم و السنة الحق ارقام كما تقول الصوفية كذلك .

هذا التصوف هام يظهر لنا أن الخطة المعروضة ، هي الخطة التي كان يتبعها آدم ونوح و ابراهيم وموسى وعيسى و داوود الى محمد الذي اجتمعت فيه جوامع الكلم ، فعندما نأخذ هذه اللفظة التي تقول بأن لكل اجل كتاب ، نرى بأن الله سبحانه و تعالى يعلم نقصان البشر فيخضع تعاليمه لنقصانهم بحسب مراحل الوجود وبحسب تطور التاريخ كذلك ما يتعلق بتربية الطفل أولادكم حسب زمانهم فانهم خلقوا لزمان غير زمانكم ، فهذا ينطبق على الزمان التاريخي زمن الشعوب ، و تتابع الاجيال ، كما ينطبق على طفل واحد في المدرسة او البيت اثناء تربيته و يقول الصوفي ، بأن هذا النظام يتلخص في لفظة واحدة ، هذه اللفظة هي البحث عن الحق والخضوع الى الحق ، و الحق فيه القسم الظاهر وفيه قسم الباطن ، القسم الظاهر هو الشرائع والقوانين بما فيها القوانين العلمية وقوانين الحرف والمهن والمبادلات . الخ ، و القسم الباطن كذلك فيه شعب ما يستأثر به الله ، ”وله مفاتيح الغيب لا يعلمها الا هو“ ، ومن حين لآخر يعلم الله الناس ، وفيه ما يصل اليه الانسان بالمجاهدة و هو التسلق على المراحل الثلاثة من علم اليقين وعين اليقين و حق اليقين ، ثم ان هذا المتصف رجلا يشبه عليا كرم الله وجهه ، يشبه عمر بن الخطاب يشبه احد المتأخرين عنهم عمر بن عبدالعزيز و يشبه رجلا و لولم يصل الى هذه الدرجة من العلم و المعرفة كان يخرج من الجهاد الاكبر طول النهار ، و يدخل الى الجهاد الاصغر بالقيام بالليل والخوف ومحاسبة النفس و هو يوسف بن تاشفين ، فالصوفي ليس بالرجل الذي اراد ان يشوّهه اما الاستغلال أو الاستعمار أو هما معا ، الصوفي هو الرجل الذي وجهه للحق و اسلامه للحق .